العقـــاد

هذا الشاعر واحد ثلاثة نشئوا فى بيئة أدبية واحدة . وزميلاه هما عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازنى . تدارس هؤلاء الرفاق الأدب معاً . وواظبوا على المطالعة . واتجهت آراؤهم الأديب ونوازعهم الثقافية والفكرية اتجاهاً واحداً .

ولاشك أن أروع مافى حياة العقاد أنه صنع نفسه بنفسه . ذلك أنه لم يظفر فى مطلع حياته بقسط كبير من الدراسة المنتظمة . ولكنه بروحه العصامية العظيمة تمكن من الاطلاع على الأدبين العربى والإنجليزى إطلاعاً واسعاً حتى قبل أن يلقى شكرى والمازنى .

ولاريب أن كلاً منهم قد تأثر بصاحبيه فى المطالعات الأجنبية وإن اختلفت مواهب كل منهم وتفاوتت قدراتهم الذهنية الخلاقة .

والفضل فى نجاح العقاد فيما بعد إنما يرجع إلى همته العالية . ونفسه الطموح المتوثبة المتطلعة أبداً إلى السمو والإبداع فى الأدب والفكر والشعر . والحق أن جهاد هذا الشاعر الكبير فى سبيل الحصول

على ثقافة حرة واسعة النطاق جهاد مشكور . يحمده له كل من طالع سيرة حياته . ويضرب به المثل للشباب الطموح الذى يصبو لتحقيق أسمى الآمال .

وثقافة العقاد مزيج من العربية الصادقة والإنجليزية القويمة ، شأنه فى ذلك شأن صديقيه شكرى والمازنى . ولعل من الإنصاف أن نقول هنا إنهم كوّنوا مدرسة واحدة ، واضحة المعالم ، ظاهرة الحدود ، جلية الأغراض . ولقد يجد الناقد الأدبى المخلص شيئًا من الصعوبة فى التمييز بين أصدقاء عاشوا فى بيئة واحدة عيشة ممتزجة متحدة ، يدرسون معًا ، ويفكرون معًا ، وينظرون إلى الأدب والفنون نظرة واحدة لا اختلاف عليها . بل لقد تقرأ القصيدة لشكرى فتظن أنها من نظم العقاد أو من نظم المازنى . وهكذا يكون شأنك لو طالعت قصيدة من قصائد المازنى أو العقاد ، ولقد كانوا ينظمون معًا فى الموضوع الواحد بل فى البحر الواحد والقافية الواحدة قصائد قد يجئ فى معانيها شىء كثير من توارد الخواطر . وكيف يسلم شعر أصدقاء كهؤلاء الأصدقاء من توارد الخواطر . وهم يفكرون معًا ويقرءون معًا ، فكأنهم قلب واحد أو ذهن واحد متنقل بين أبدان ثلاثة ؟! ويمكننا أن نعثر على أصدقاء كهؤلاء الأصدقاء فى صدر القرن التاسع عشر الميلادى فى إنجلترة : أجل ، هنالك كيتس ،

وهنت ، وشيللى وبيرون ، وسواهم كثيرون . والصداقة الأدبية المتينة فيها فائدة أى فائدة ، ولا يستطيع أحد أن يجحد فضلها أبدًا .

ذكرت أن الثلاثة ، شكرى والمازنى والعقاد ، قد اتفقوا فى المشرب اتفاقًا كبيرًا ، وقلت إنه من الصعب التفريق بين خصائص كل منهم ومواهبه ؛ ولكن الناقد الأدبى المخلص فى مكنته التفريق بين هاتيك الخصائص الفردية التى يختلف فيها الواحد عن الآخر .

ظهر لنا من دراسة شكرى أنه شاعر متطير متشائم ينظر إلى الحياة نظرة سوداء ، ويبرم بالدنيا وبالناس ، ويسخط على الوجود والعيش ، ويحب الموت ويود أن تنتهى حياته ويخلص من قيد البقاء الكريه . أما العقاد فساخط كذلك ، برم بالحياة ، ولكن سخطه وبرمه لا يذهبان برشاده وهداه جميعًا ، وإنما هو يعلم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وهو يرى أن الصبر على مكاره العيش نوع من الفلسفة المحببة . وله فى ذلك كله فلسفة هادئة برغم ثورتها الكبيرة الظاهرة . أما المازنى فلسنا بسبيل الكلام عن شاعريته ، ما دام قد برئ هو من هذه الشاعرية وأعلن أنه ليس بشاعر ، وإن كان هو فى الحقيقة شاعرًا بالرغم منه !

ولعل من أظهر الأدلة وأوضحها على صدق ما قلناه من أن فلسفة العقاد هادئة راضية قانعة بالعيش على مضض — على نقيض

فلسفة شكرى البرمة الساخطة – قصيدة العقاد إلى عبد الرحمن شكرى وهو بالإسكندرية ، والتى جعل عنوانها (إلى جار بحر الروم) ، فهو فى هذه القصيدة يحض شكرى على فك أغلال الزمان ، فى تفاؤل عجيب ، ويشكو إليه زمنه شكوى كلها إباء وعزة ورضا عن العيش ، وقنوع بما فى الحياة من جمال تزجيه الطبيعة الحسناء . اسمعه يقول :

يا جار بحر الروم ! مالك صامتًا ؟
هلاّ إقتديت بموجه المتجدد ؟!
غضبان من لؤم الحياة ، وأنها
أمة ولكن مالها من سيد
فليسلينك فى جوارك خضرم
غضبان يقذف باللغام المزبد
إنى ألب بموطن لو أنه
قفر لأطربنى صغير الفدفد
تمضى الشهور وفى الجوانح لوعة
تمشى على كبدى كحز المبرد
أشكو الزمان إلى القريض وتارة
أشكو القريض إلى الزمان المعتدى

فاكتب على هذا الزمان ذنوبه
إنا نؤجله الحساب إلى الغد
واضحك فإن قالوا تضاحك قانط
فاضرب لهم مثل الغمام المرعد
تالله لو علموا لكان مكاننا
فيهم أعز ، وكيف علم المقتدى ؟!

فى هذه القطعة على صغرها تتمثل كل فلسفة العقاد ، وتكمن نظرته الشاملة إلى الحياة ، تلك النظرة الثائرة الهادئة ، الطامعة القانعة ، التى ترضى بما قسم لها اليوم « مؤجلة حساب الزمان المذنب إلى الغد » !

وهو يضن بالحياة ولا يعدل بها شيئًا ، ويبقى عليها إبقاء كبيرًا ، على نقيض شكرى الذى يبكى ويستسهل الموت فى سبيل إرضاء معشوقته ، أو يحاول التخلص من حياته لخيانة عشيقة أو لعقوق صديق ! فاسمع العقاد يقول فى قصيدته « الخيبة » مخاطبًا الدهر :

إنّا قرينا الرزايا من مدامعنا
وقد نضبن ، فماذا تشتهى بدلا ؟

وقوله :

إذا اطمأن إلى البأساء صاحبها
فأهون الحال ما تدعونه فشلا

وهكذا يرضى بالفشل ويقنع به ، ولكنه لا يفكر فى الموت كما يفعل شكرى فى مثل حالته .

وللعقاد قصائد وجدانية تلحظ فيها سخطه وتبرمه هادئين كما قدمت ، ومن هذه القصائد قصيدة «ياكتبى» إذ يقول :

يا كتبى ! ألبست جلدى الضنى
لم يغنى عنى جلدك المذهب !
كم ليلة سوداء قضيتها
سهران حتى أدبر الكوكب
كأننى ألمح تحت الدجى
جاجم الموتى بدت تخطب !

ويختتم هذه القطعة الوجدانية المشتعلة بقوله :

لا رحم الرحمن فيمن مضى
من علم العالم أن يكتبوا !

وله قصيدة اسمها «كأس على ذكرى» فيها الكثير من الأبيات الوجدانية البارعة ، ومنها يقول :

يا نديم الصبوات ! أقبل الليل . فهات !
واقتل الهم بكأس سميت كأس الحياة
خرب القلب فعمر ه بخير الساكنات
خمرة تملأ قلبي بقديم الذكريات
وشجى النغمات وجنى الثمرات

ويبدو لى أن العقاد معجب بهذه القصيدة التى صاغها بسهولة بنائها وجميل موسيقاها . ولذلك عاد فأحياها فى (هدية الكروان) خيرًا ضمن قصيدته «كلماتى» وهى من نفس البحر والقافية . وكان العقاد موفقًا توفيقًا كبيرًا فى قصيدته من حيث البناء والمعنى .

* * *

ويلوح لى أن العقاد لم ينل نصيبه من متع الحب العذرى الصادق ولعل نشأته الجادة وحياته المكافحة هما السبب فى إهمال هذا الحب . ولذلك لا نظفر له بشعر عاطفى يتعادل مع شعره الوجدانى الفلسفى أو الوصفى إلا فى دواوينه الأولى أيام كان شابًا مشتعل الوجدان . وليس أدل على ذلك من قصيدة «داونى» التى

تلمح فيها عاطفة طيبة ولهفة وحنينًا لا غبار عليهما . اسمعه يقول :

داوني يا طبيب واعرف داوني
لست أبغي الشفاء كل الشفاء

داوني واقتصد ، ففي البرء لوكا
ن سقامي ، وفي السقام دواني

إن دائي كالسهم أنشب في القل
ب وكالسهم قر في الأحشاء

لبه موجع ، وأوجع منه
نزعه ، والهلاك في الإبطاء

داوني أيها الطبيب ! أما داوي
ت مثلي من مثل هذا البلاء ؟

واشف قلبي فلست أول شاك
فوق هذا الثرى وتحت السماء

إلى آخر هذه القصيدة العاطفية الجميلة . والغريب أن بعض معاني هذه القصيدة شائع في الشعر العربي القديم ومع ذلك فقد عرف العقاد كيف يصوغها ثانية في ثوب جميل من اللفظ الرصين .

وله قصيدة تحت عنوان «نفثة» أعترف أنها من أجود شعر الوجدان والحب ، يقول فيها :

غربوا قلبى وهم وطن ومضوا عنى وما ظعنوا
واستقلوا حيث لا رسل تبلغ المسعى ولا سنن
أين منا دار وصلتهم ؟ قربت لو أنها مدن
دارهم لا قوضت أبدًا عزة فى ظلها سكنوا
أى فردوس علمت به لم يحطه الموت والإحن ؟
هذه الجنات نبصرها هل لنا فى بعضها وطن ؟

ثم يخرج شيئًا فشيئًا عن الموضوع الغزلى وينحى على الزمن قائلاً :

زمنى جوزيت يا زمنى أى بأس فيك لا يبن
ما الذى أبقاه لى زمنى غال صفوى كله الزمن
ليس لى من مبصر أمل كل شىء فيه لى شجن
ما الأمانى ؟ إنها خدع ما الغوانى ؟ إنها دمن
ما الصداقات التى زعموا ؟ إذنها البغضاء توتمن
ما العلا ؟ ما المجد فى أمم مجدها بل ربها وثن ؟
ما السجايا الغر ؟ وا أسفًا إنها حلم ولا وسن !

وهكذا تتدفق ثورة الشاعر على الكون والزمان والحياة

وما وسعت من كائنات . وفى قصيدتيه «مولد الحب» و«موت الحب» صورة قلقة للحب فى ساعة ابتدائه وفى ساعة انتهائه وفنائه ، عارضًا شجى قلبه ولوعة وجدانه عرضًا لا بأس به ، وكذلك شأنه فى قصيدة «الصنم الهاوى» .

ولعل أروع قصائد الغزل التى نظمها العقاد هى قصيدته «غزل فلسفى» التى ظهرت فى (وحى الأربعين) وفيها يبدو الشاعر المحب فى مسوح الفيلسوف . ولقد وفق العقاد إلى حد بعيد فى نظم هذه القصيدة بحيث جاءت حاوية لصور كثيرة من صور الجمال الشعرى . ولا يجد الناقد الأدبى المخلص فى هذه القصيدة فلسفة حقة ولكنه يجد جمالاً شعريًا . فهذا الغزل إلى الشعر الصوفى المتجرد أقرب منه إلى الشعر الفلسفى . أسمعه يقول :

فيك من شمس الضحى العين التى
ترسل اللمح مضيئًا فى الظلام
فيك من بدر الدجى أحلامه
حين يسرى نائمًا بين نيام
فيك من كل ربيع طلعة
تثبت النظرة عامًا بعد عام

والشتاء الجهم لا يعدوك من
عهده العاصف برق وغمام

إلى أن يقول :

فيك منى ومن الناس ومن
كل موجود وموعود تؤام
كيف بى أعذل إن أغنيتنى
أنت حتى عن شرابى والطعام
إن نفوسى اليوم عن دنياهمو
وأباحوا لى عن الزاد المرام
ثم قالوا ما تشا منها فخذ
قلت هذا ، وعلى الدنيا السلام !
قلت : هذا ، وتقدمت إلى
هوة الغيب وفى الثغر ابتسام !
كيف بى أعذل إن أغنيتنى
أنت حتى عن شرابى والطعام

لا يرى القارى فى هذه القصيدة فلسفة وإنما يرى تفكيرًا قويًّا ، ومعانى بارعة ، ولقد وفق العقاد فى نظمها توفيقًا كبيرًا .

وله قصيدة «حسرة مقلقة» فيها حنين وفيها شهوة غالبة . اسمعه يقول :

يا له من فم يا لها من شفه
يا لشهد بها كدت أن أرشفه
يا لزهر بها كدت أن أقطفه
حلوة وبحها ! غضة مرهفه
حسرتى بعدها حسرة متلفه !

ولكنى أذهب بك إلى قصيدة غزلية رزينة هادئة للعقاد وقد اتخذ له سمة الشعر الرمزى القصصى وجعل عنوانها «سعادة فى فقم» وأرى أن أنقل هذه القصيدة كلها لما فيها من جمال فنى وإحكام نظمى :

هنا فقم سابح فى الدم أسائل عنه ولم أعلم
جهلت خباياه حتى أنى عريف الطلاسم بالمعجم
ففيه كما قيل مسجونة سعادة بعض بنى آدم
تجن جنونًا بنور الضحى وتذبل فى جبها المظلم
وقد زعموا أن إطلاقها رهين بهمسة ذاك الفم
بسر على شفتى فاتن يباح إلى شفتى مغرم
فهل أنت مطلقها منعمًا فديتك . أم لست بالمنعم ؟

وما أنت بالمشتهى قبلة ولا بالحريص على مغرم
ولكنما أنا أبكى أسى لتلك الشهيدة فى القمقم !

وأرى أن العاطفة فى هذه القطعة قد شابها شىء من التفكير اللذيذ ولعل ذلك جاء من تقدم السن به ونضج نظرته الفنية والعاطفية ولكنك تعثر على العاطفة الخالصة فى «الحان والمسجد» و«النعيم المفقود جحيم موجود» وفى أمثالهما من شعره .

* * *

وجه العقاد عنايته نحو الشعر القصصى والمثولوجى فكتب فيه بعض قصائد قيمة ، منها «غادة أثينا» «وأكاروس» . وهو فى الأولى يتناول الناحية العاطفية المثالية الموهومة الممتزجة بالتاريخ الصحيح ، أما فى الثانية فهو يعتمد على المثولوجيا الإغريقية فيروى لنا قصة وردت فيها . والواقع أن العقاد فى هاتين القصيدتين لا يعجبك بقدر ما أعجبك فى قصائد الوجدان والعاطفة والتفكير ، ولعل ذلك راجع إلى اصطناعه اللفظ العظيم الدوى أو الغريب الاستعمال فى بعض الأحيان ، غير متنبه إلى جمال الألفاظ السليمة السهلة والفصيحة المشرقة خصوصًا فى الرواية والقصة .

* * *

يجئ بعد ذلك باب هام من أبواب شاعرية العقاد يكاد يتفرد به دون سواه ، أو قل فى معنى آخر يكاد يكون المبرز فيه بين جميع من تعرضوا له بالنظم : ذلك هو باب «الشياطين» . والحق أن نفس العقاد المأزومة فى شرخ الشباب كان لها أن تنفس عن همها وتخلص من بعض همومها ، وهى نفس مثقفة واسعة أفق التفكير ، كثيرة الحساسية ، فلا أقل من كتابة آلامها فى القريض . وهكذا عرف العقاد كيف يتخلص من بعض خواطره المؤرقة فى قصيدته «ترجمة شيطان» ، وما أحسبها سوى ترجمة إنسان من الأناسى الذين يعيشون بين ظهرانينا .

وفى هذه القصيدة أو القصة كثير من الجرأة ، بيد أن فيها الكثير من الصدق كذلك ، فهذا الشيطان الذى ترجم له العقاد هو كل واحد من الناس ! فمن الذى أوقفه الطمع عند حد ؟ ومن الذى عرف قدر نفسه وفهم أنه مخلوق ضعيف يتصرف فيه خالق كامل مبدع ؟ لو كان فينا من يفهم ذلك ويتدبره حق التدبر إذن لما رأينا هذه الجرأة فى عصيان الله ، والخروج على أوامره وأحكامه ولما اتبعنا طريق الشر :

بيد أن الشرّ ما زال أريبًا
وسبيل الغى ممهود الجناب

لن تراه حيث تلقاه غريبًا
أبد الدهر ولا تزر الصحاب

وهذا حق جميعه برغم شناعته وبشاعته . ويعجب القارئ من جرأة التعبير فى قوله :

أيها المولى ! ولا تغضب على
عبدك العاصى إذا لم ترضه
عبد سوء رفض الخلد فلا
تبل بالجود قصارى رفضه !
لا تعاجلنى بلوم ! إننى
قائم عنك بلومى وانتقادى
أنا من ينصف من يقرفنى
وتجى الذم منى لا يصادى
كم عهدنا عاهلا فى ملكه
يحكم الناس بما لا يفقهون
يوبق السائل عن مسلكه
ويبيح الأمن من لا يسألون

ويجرى فى هذا الكلام عصيان صريح ، ولكنه أثر للتشكك

الذى يدهم النفس المكروبة ويطغى على الروح المحروبة ، ولها العذر . وهذه القصة من أحسن ما نظم العقاد إطلاقًا .

وللعقاد بعد ذلك قصائد أخرى فى الشياطين منها «سباق الشياطين» و«عيد ميلاد فى الجحيم» و«إبليس يتحر» ، وهو فى عيد ميلاد فى الجحيم شاعر متهكم واقف على أسرار الدنيا كلها . اسمعه يقول :

هذا الجحيم أحب لى من عالم
ما كان لى إلا رجاء خابا
الشر ثمة كان شرًّا كاسمه
والخير كان كما علمت سرابا

ويصف فى «إبليس يتحر» الدنيا وقد خلت من الخير والناس وقد تمادوا فى الضلال والآثام حتى أصبح كل منهم إبليسًا :

واستغنت الأرض والسماء معًا
عن الشياطين فانطووا جزعا
ما حاجة الأرض للأبالس فى
عهد نضا الخوف عنه والجشعا ؟ !

ثم يقول على لسان إبليس :

أتى زمان أموت فيه أنا
أبليس يأسًا ، وفى يدى صنعا
ودعت ملك الدنيا وودعنى
ملك إذا هم قلما رجعا
هاتوا لى الخير جرعة فإذا
ضعفت عنه شربته جرعا
سأسبق الموت حين يتبعنى
فإنه لاحق إذا تبعا !

* * *

والجانب الوطنى عند العقاد جانب جدّ يسير بالنسبة لجوانبه الأخرى ، ولست أدرى كيف كان ذلك والعقاد رجل متصل بالحركة الوطنية ! ولكن يقال إن له قصائد وطنية لم تنشر لظروف سياسية خاصة ، ولكننا لا نستطيع أن نحكم على شىء لم نره . هذا والقصائد التى نظمها العقاد فى الوطنية قصائد رصينة ملتهبة العاطفة تشرف الشعر العربى الحديث .

* * *

والرأى أن العقاد – شاعر واسع الأغراض . بعيد الخيال ، رائع

الأفكار . غوّاص فى طلب المعانى . وهو لاشكّ يروعك ويستثير إعجابك .

والحق أن الشعر العربى قد كسب كسبًا عظيمًا بشعر شكرى والعقاد والمازنى . وإذا كان شكرى قد اختصر الطريق وأهمل نشر آثاره فإن العقاد ما يزال ينفح المتأدبين فى العالم العربى بدواوينه التجديدية القيمة . وقد أصبح بإنتاجه الممثل الباقى لتلك المدرسة الثلاثية فى وقتنا الحاضر .